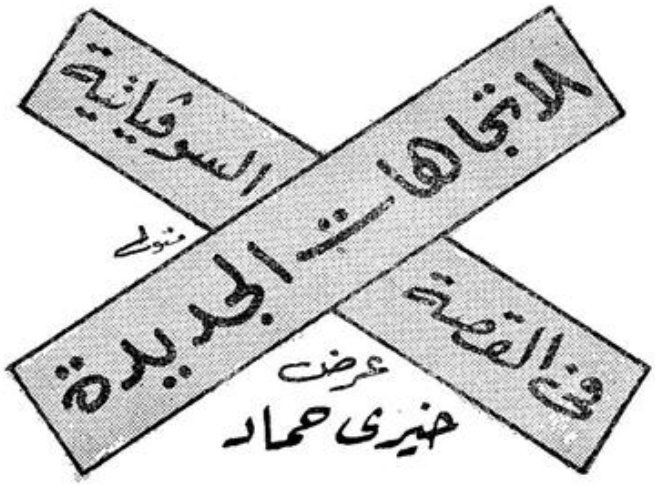

هناك حقيقة واقعة ، لا مرية فيها ولا شك ، وهى ان القصة السوفياتية ، أخذت تمر فى الحقبة الأخيرة ، أى بعد وفاة ستالين ، بمراحل من التبدل البطىء ، تميزت بالنشاط والحيوية فى التركيز على أحداث الحياة العاطفيـــة والاقلال من الاهتمـام بالمواضيع السياسية أو بأوضاع الصناعة والزراعة ، مما يشير بوضوح الى حيـــاة الانسان الخاصة عادت تحتل مكانتها فى الأدب السوفياتى الحديث بعد أن كانت قد فقدتها فى عهد ستالين .

ولم يعد كتاب القصة الجدد فى الاتحاد السوفياتى يعنون كأسلافهم ، بالقضـايا الجماعية ، والجوانب العامة للحياة ، قدر عنايتهم بالحياة اليومية الخاصة وما يقع فيها من حوادث صغيرة ، وما تتأثر به من انطباعات آنية . وهكذا راحوا يبعثون الى الوجود ، تقاليد تشيكوف وتيرجنييف وبوزينين من عمالقة القصة العالمية ، بما تضمه من اهتمام بالتنهدات والابتسامات ، وصور الطبيعة الموضوعية .

وقد وقع هذا الانقلاب فى القصة السوفياتية فى السنوات التى تلت موت ستالين . فلم يعد للقوالب القصصية ، «المصبوبة» والجامدة التى تميزت بها القصص القديمة التى وضعت فى عهده والتى باتت الآن تمثل الأدب الكلاسيكى ، وجـــود فى القصص الجديدة التى تمثل مفاهيم الواقع الاشتراكى فى كثير من الانطلاق والتحرر ، والتى تمثل قصة « ليس بالخبز وحده » لدودنيتسيف ، أروع صورة لها .

ولا يعنى هذا القول . ان كل ما تخرجه المطابع السوفياتية اليوم ، هو من هـذا الطراز الثائر على التقاليد القديمة ، المتجدد فى صوره وموضوعاته ، فهنـاك قصص مازالت تظهر فى الاتحاد السوفياتى ، متشابهة فى موضوعاتها وصورها ، للقصص التى صدرت فى عهد ستالين ، والتى تتناول مواضيع المزارع الجماعية والمشاكل الزراعية والمصانع والمكاتب فى صـــور مبســـطة سهلة على الحل ، تدعم القيم الاشتراكية وتسندها . لكن قصص التحليل النفسى أخذت الآن تحتل مكانها فى الأدب السوفياتى الجديد ، على أيدى روادها من أمثـال سيرجى انطونوف وفيرا بانوفا ، كمـــا راح

قصصيون آخرون من أمثال يورى كازاكوف ويورى ناجيبين يطلعون على القراء ، بقصص تتناول الجنس فى صور نقية ومترفعة .

ولا يحتل كازاكوف وناجيبين منزلة عالية بين القصصيين السوفيات اذ ان عدد قرائهما محدود فى العالم الاشتراكى. ولكن المهتمين بشؤون الأدب من الروس وغيرهم، يتابعون كتاباتهما باهتمام زائد ، اذ انهما يمثلان فى رأيهم شيئا جديدا ، لا يتفق مع المعايير الحزبية العامة ، وقيمها ، وهما لا يقفان موقف المعارضة الصريحة للمفاهيم الحزبية وقيمها ، ومعاييرها ، وانما يتجاهلانها كل التجاهل ، ويغوصان فى أعماق النفس الانسانية ، مصورين مشاعرهما تصويرا فيه الكثير من الروعة والاجادة ؛ ولذا يمكن اعتبارهما خير ممثلين للاتجاهات الجديدة فى الأدب السوفياتى التى تميزت بالثورة الكاملة على كل ماهو تقليدى وقديم .

***

ولد يورى كازاكوف فى مدينة موسكو فى عام ١٩٢٧ . وهوى الموسيقى منذ نعومة أظفاره . فدرسها دراسة جادة ، وانضم كعازف الى احدى الفرق الموسيقيةالمغمورة. ولم يقبل على كتابة القصص الا فى عام ١٩٥٧ ، حيث نشر مجموعة صغيرة من القصص القصيرة فى بعض المجلات الأدبية الشهرية ، كما أصدر مجموعتين قصصيتين ، أولاهما باسم « مانكا » فى عام ١٩٥٨ والثانية باسم «فى محطة القطار» فى عام ١٩٥٩.

وتمثل غالبية الشخصيات التىضمنها قصصه القصيرة هذه ، مخلوقات مشوهة سواء أكانت بشرا أم من الحيوانات ، قدر لها أن تواجه الحياة وقد أصيبت باحدى العاهات . وفى هذا المنطلق تكون عاطفة الاشفاق على بطل القصة ، الصورة الغالبة على قصصه كلها .

ففى قصة « مانكا » التى صدر بها مجموعته الأولى ، يرسم كازاكوف لنا فتاة يتيمة فى الرابعة عشرة من عمرها ، نحيلة الجسم ، عجفاء القوام ، قبيحة الصورة ، وهى تعمل فى توزيع البريد فى منطقة قطبية نائية ، تقع على ساحل المحيط المتجمد الشمالى ، وقد تباعدت مساكنها ، منتشرة على مساحة شاسعة من الأرض . وتعجب الفتاة لسوء حظها ، ببيرفلى ، وهو أجمل شباب المنطقة كلها ، وأكثرهم اقداما وشجاعة ، وتعرضا لمغازلة الفتيات . وسرعان ما يتحول الاعجاب الى حب طاغ من جانب واحد ، هو جانب الفتاة ليس الا ، اذ أن فتاها بيرفيلى لا يعرف عنه شيئا ، وقد انصرف عنه ، بحبه لفتاة رائعة الجمال من فتيات المنطقة تدعى لينكا .

لكن لينكا تصد فتاها ، وتمنعه ، وفى ذات يوم ، وجهت اليه عبارات مهينة ، فثارت ثائرته ، وراح الى البحر يحاول أن يستقل زورقا ، يقتحم به عباب الموج الزاخر وسط عاصفة هوجاء . وتلقاه مانكا ، وهو يكاد يمضى فى زورقه ، فتحاول صده عن بغيته ، ولكنه يزداد اصرارا ، ولا ترى مندوحة لها عن مرافقته فى الزورق . ويصبح الزورق كريشة تتقاذفها الأمواج وسط العاصفة المزمجرة . وسرعان ماينقلب

بهما القارب ، ويشرفان على الغرق ، لولا أن قذفت بهما الأمواج على ساحل غير مطروق ، ولا أثر فيه لحياة . وفجأة يجدان نفسيهما أمام كوخ ، ليس فيه انسان ، فيلجانه ليجففا ثيابهما وليحتسيا بعض الفودكا .

ويتحقق لمانكا حلمها داخل الكوخ ، فيحس بيرفيلى أخيرا بوجودها كامراة الى جانبه ، وسرعان ما يقبل عليها محاولا عناقها . لكن الفتاة ، وقد فوجئت بهذا الحب المباغت الذى لم تكن تتوقعه حتى فى أحلامها ، تدفعه عنها ، وتخرج مخلفة اياه فى الكوخ . وهنا تنتهى القصة ...

ولا يوضح لنا كازاكوف السبب فى هذا التحول من جانب الفتاة ، كما لا يحاول أن يلقى أى ضوء على ما سيقع فى المستقبل . فهو يترك الاحتمال بعودتهما الى اللقاء فى الكوخ قائما ، كما يترك لنا مانكا ، وهى تواجه وضعا نفسيا مغلقا ومبهما لا يستطيع المرء تصويره الا بأنه مزيج من مشاعر الفزع والسرور والشعور بالخزى .

ونحن لا نرى فى هذا الموقف أى تحليل منطقى أو معقول ... فالفتاة تتحرق شوقا الى فتاها ، وعندما تصبح أحلامها وشيكة التحول الى واقع ، تصاب بعقدة الفزع ممزوجة بشىء من الرضى ، والغضب ، والرغبة فى الانتقام . ونحن لا نستطيع فى كل هذا الا أن نستنتج بأن الكاتب يرى فى الحياة شيئا مغلقا ، وغنيا بالمفاجئات . أما القلب البشرى ، فهو فى رأيه قلب ومندفع . وهو يكتفى بسرد ما يحس به تاركا للقارىء نفسه اصدار الأحكام الخلقية من اعجاب أو ملامة .

***

وقد اتهم النقاد السوفيات كازاكوف بالتشاؤم ، وكانوا على حق فى اتهامهم هذا، اذ انه يبدى فى مختلف القصص التى تضمنتها مجموعتاه ، احساسا صادقا برؤية الأمور تسير على غير ما يهوى الانسان ويشتهى . فهو فى قصته « بيت تحت الهاوية » يتحدث عن شاب يكتشف وجود الشر الى جانبه ، فلا يحاول مقاومته أو دفعه ، وانما يستسلم اليه مذعنا وطائعا .

وتتلخص القصة فى أن بلوخين يصل موفدا من موسكو الى بلدة صغيرة ليعمل فى مكتبتها فى اعداد دراسة عن عادات أهل البلدة فى القراءة ، وعن الأساليب التى تتبعها تلك المكتبة فى ارضاء قرائها . ويجد بلوخين فندق البلدة الوحيد مكتظا بالنزلاء . فيحار فى أمر العثور على مأوى ، ويضطر الى الاستعانة بأهل المكتبة علهم يجدون له مكانا ينزل فيه . ويبعث به هؤلاء ، الى سيدة ألفت أن تؤجر بعض الغرف فى منزلها للغرباء .

ويمضى بلوخين الى منزل السيدة ، ويستأجر غرفة فى منزلها ليجد نفسه بعد قليل ، وجها لوجه ، أمام الشر والخير فى مكان واحد . فالسيدة امراة عادية أو دون

المستوى ، وهى دميمة الصورة قبيحة الشكل . تتمسك بالآراء الدينية الرجعية البالية ، مكتفية بالقشور دون اللباب ، ولكن معها ، وفى نفس البيت ، ابنتها الجميلة الشابة ، التى تعانى من ظلم أمها أشد الويلات ، ومن قسوتها ، ما لا مثيل له . فهى سجينة لا تسمح لها أمها بالخروج من المنزل ، كما لا تسمح لها بالتحدث الى أحد من النزلاء فى البيت .

لكنها تتسلل اليه أحيانا ، لتسأله عن الحياة فى موسكو ، وعن بعض القضايا التى تشغل خواطرها . وسرعان ماتكتشف أمها ذلك ، فتغضب غضبا شديدا وتؤنبها أقسى تأنيب ، وتتحول الى بلوخين مطالبة اياه بزيادة الأجر ، كما ترفض أن تؤدى له الخدمات العادية التى تقدمها كل صاحبة منزل للساكنين عندها .

وتسود الحياة فى عينيه ، ويصبح احتمالها أمرا عسيرا يكاد يخنقه ، فيقرر الرحيل عن البيت ويرحل فعلا ، وان كان قد أحس بالواجب الملقى على كتفيه فى انقاذ الفتاة من هذا الجحيم الذى تعيش فيه ، وتحريرها من الظلم الذى يجثم على صدرها . لكنه لا يعمل شيئا ، وانما يكتفى بالجلوس فى مكتبته ، مكبا على أعماله العادية ، فى الوقت الذى تجتاحه هذه العواطف الجياشة المتعلقة بتلك الروح الانسانية « التى يراها تدمر الى جانبه دون أن يتمكن من انقاذها » . وتظل صاحبة المنزل فى مكانها السيدة المسيطرة على الفتاة التى تذبل كالزهرة فى سجنها .

***

وتنتهى القصة عند هذا الحد . وهى تخلو كما يتضح للقارىء من كل قيمة ايجابية سوى تلك الصور الرائعة التى يرسمها لأعماق النفس البشرية ، ولذلك العالم المظلم الرهيب الذى تعيش فيه تلك الزهرة البريئة ... ولعل هذا التقاعس من جانب الكاتب عن ايجاد الحل ، هو الذى حمل النقاد على اتهامه بالتشاؤم .

ويقيم كازاكوف الدليل على ان الحب أصبح موضوعا مألوفا لدى الكتاب السوفيات الجدد الذين أولوا الحياة الخاصة والمشاعر الانسانية جل عنايتهم أو اهتمامهم . ولم تكن قصة « الأزرق والأخضر » ، الا قصة حب فعلية بين اليوشا وليليا ، منذ اللحظة التى التقيا فيها لأول مرة فى موعد فرضه القدر ، تمثلت فى سلسلة متلاحقة من المطارحات الغرامية والقبلات ، والصد والعتاب ، الى أن تنتهى القصة التى يرويها الكاتب على لسان بطلها اليوشا ، بظهور رجل ثالث يقع فى حب ليليا ، فتتزوجه ثم تسافر معه الى الشمال ، مخلفة حبيبها الأول وهو يتجرع غصص الحسرة .

وتتضمن القصة شطحات يرويها الكاتب على لسان البطل ، لا معنى لها على الاطلاق ، ولا صلة بموضوع القصة ، فهو يرى كل شىء ، ويحاول أن يصفه أدق وصف بكل مافيه من دقائق وتفاصيل ، وهو يفكر بمسائل تافهة لا تستحق منه أن يوليها شيئا من تفكيره ... ولنسمعه يقول ... « وعندما نمر باللافتات ، أقرؤها

بعناية . وفى وسع الانسان ان يقرأ اللافتات فى طريق العودة أيضا ، فهى تظهر وكأنها أصوات مضحكة » ... وفى مثل هذه الأقوال التى كثيرا ما تتردد فى القصة ، لا تمثل اية علاقة بين ما يقوله الكاتب وبين موضوع القصـــة ، الذى يبدو وكأنه كل مايراه اليوشا وما يسمعه وما يفكر به فى اية لحظة من اللحظات .

وبالرغم من ان القصة لا تنطوى على اية احداث مثيرة أو غير عادية ، وانما تكتفى

بسرد الحوادث الصغيرة التى يمر بها ملايين المحبين فى حياتهم اليومية ، فان كازاكوف ينجح فى أن يقدم الينا عن طريق ابراز الأثر الذى يتركه الواقع اليومى على وعى اليوشا الساذج ، صورة واضحة عن نمو حب عنيف ينتهى الى حزن عميق ، عندما يفقد العاشق فتاته ، عاكسا لنا الأضواء والظلال ، كما يراها فؤاد بسيط ساذج كفؤاد اليوشا .

ويرسم لنا كازاكوف فى قصته « فى الجزيرة » صورة حب لا يقل فى شقائه عن حب اليوشا ، ولا سيما فى نهايته الحزينة فزابافين بطل القصة ، رجل متزوج فى الخامسة والثلاثين من عمره ، وتضم أسرته ولدين يحبهما كل الحب . وتوفده الهيئة التى يعمل معها ، فى مهمة رسمية الى جزيرة نائية من جزر الشمال ، حيث تقيم جوستيا الفتاة الشابة التى لا تتجاوز السادسة والعشرين من عمرها ، والتى تدير محطة الأرصاد الجوية فى الجزيرة .

وتشتد الألفة بين زابافين وجوستيا ، وتطول الأحاديث بينهما عن السعادة والحب والحياة والشيخوخة . وتتحول الألفة الى عاطفة ، والعاطفة الى حب جارف ، فيتبادلان العناق والقبل . ولكن هذا الحب المفاجىء ، ينتهى الى نهاية محزنة عندما تحين ساعة الفراق ، ولم تبق أمامهما الا ليلة واحدة ، اذ أن زابافين سيستقل مركب الصيد فى الصباح عائدا الى بيته وزوجه وولديه .

ويمضى الحبيبان فى طريقهما الى المركب وتسأله جوستيا « ماهذا ؟ أهذه هى السعادة ؟ » فيرد عليها زابافين والألم يعتصر فؤاده ... « أجل ... أجل ... انها السعادة » ، فتنهمر الدموع من عينيها وهى تقول ... « آه يا الهى » . ويمضى زابافين الى قاربه وحيدا ، وقد خلف فؤاده معها ، ويعود بفكره اليها فيقول ... مخاطبا نفسه ... « اذن هذه هى السعادة ! وهذا هو الحب ! آه ، ما أغرب الحب!! »

ولا يعنى كازاكوف فى قصته هذه بمعايير الحزب الخلقية ، وانما يحاول أن يرسم ، دون أن يدين أحدا ، دقائق ما يحس به رجل وامرأة ، ربطتهما علاقة حب قصير وعابر ، وان يضمن لوحته ، مزيجا من مشاعر الحب والسعادة والمرارة والألم .

***

أما يورى ناجيبين ، فقد ولد فى عام ١٩٢٠ ، ودرس فن التصوير السينمائى وعمل ابان الحرب العالمية الأخيرة فى الجهاز السياسى للجيش السوفياتى ، ثم أصيب بجراح ما لبث أن شفى منها ، ليتحول الى مراسل حربى . وقد نشر قصته الأولى فى عام ١٩٣٩ وصدرت له منذ ذلك التاريخ ست مجموعات قصصية ، كما تضمنت مجموعة الآثار الأدبية التى نشرتها « مجلة موسكو الأدبية » فى عام ١٩٥٦ ، قصتيه « حلية الخرز » و « ضوء من النافذة » ، وأثار نشرهما الكثير من التعليقات لتعارضهما مع الاتجاه الستالينى الذى ظل سائدا حتى ذلك التاريخ .

وهو يشبه فى أفكاره ، كازاكوف تمام الشبه ، فهو يكثر من الحديث عن الحب ولا سيما ناحية الألم فيه . فقد رسم فى قصته « الحب » ، صورة حب برىء ، حمله ايجور ، الفتى الريفى ، لفتاته ناستيا . وقد بدأت القصة عندما كان ايجور فى التاسعة من عمره ، اذا أحب فتاته بالغ الحب . ثم اضطرته ظروفه الخاصة الى مغادرة القرية الى المدينة لاستكمال دراسته . ويبدو انه طيلة اقامته هنالك ، لم يسطر حرفا واحدا الى حبيبته ، كما لم يتلق أى أنباء عنها . فعندما عاد الى القرية بعد استكمال تعليمه ، عرف ان ناستيا قد غادرت القرية ، بعد أن وقعت فى غرام رجل بارز أوقعها فى شباكه ثم ما لبث أن تخلى عنها . ولا يترك ايجور زاوية الا ويطرقها بحثا عن حبيبته الى أن عثر عليها ، وهى تعمل فى غسل الأطباق فى أحد فنادق المدينة ، بعد أن فسدت روحيا وجسديا . ويتكشف له أثناء حديثه اليها ، انها فقدت براءتها ، وانها تنظر الى الحب نظرة متشائمة ، بعد أن اكتنف الغموض حياتها ، وبعد أن تعلمت الكثير من طرائق الحياة التى لا توجد فى القرية البسيطة . . . انها تقول له . . . « آه ، يا ايجور ، كيف يعيش الناس ! ان الانسان لا يكاد يتصور ذلك حتى فى أحلامه » . ويرد عليها ايجور قائلا . . . « ان الناس يحيون حياة جدية ، مليئة بالمتاعب والمشقات » .

ويعرض ناجيبين فى عدة صفحات طافحة بالملاحظات الدقيقة التأثرات التى يتعرض لها ايجور ، فهو يجد لأسباب لا يستطيع فهمها ، انه لم يعد يحب فتاته التى فقدها ، وانما يحب ناستيا الجديدة والغريبة عنه ، التى لا يكاد يعرفها ، بل ويجهل كل شىء عنها . ويطلب اليها أن تعود اليه . فتهزأ به مستهترة . وتكشف عن تدهورها الخلقى ، فى حلقة من الحوار الوضيع مع صديقة لها يدور محوره حول حب ايجور . ولكنها تنصاع لرغبته أخيرا ، وبعد سلسلة طويلة من الألحاف والصد فتعود اليه .

ونحن نرى ناجيبين فى قصته هذه ، يرفض كزميله كازاكوف ، الاستجابة لما فى التفاسير المبسطة للأوضاع من اغراء واستهواء . فهو يعرض الصورة الدقيقة الكاملة لانحراف ناستيا واعوجاجها ، دون أن يزخرف الواقع أو يزوقه ، وهو يرى ان الطبيعة البشرية شىء معقد يثير حيرة الانسان ، كما يرى ان العوامل التى تؤدى الى الضعف والشقاء ، والفشل فى الفهم ، عديدة وقوية .

وتصور قصته « المنصة الصخرية » ، حب فتاة تعيش فى عزلة ، تفوق تلك التى كانت تعيشها ناستيا بطلة قصة كوزاكوف التى ذكرناها قبل قليل . وتدور القصة حول عالم فى طبقات الأرض ، يذهب فى بعثة علمية الى المناطق الجبلية الشاهقة المحاذية لحدود أفغانستان ، حيث يلتقى كاتيا ، الامراة الشابة التى تحتل وحدها ، محطة التجارب النباتية ، ويعرف منها عرضا انها كانت قد احبت اثناء دراستها الجامعية . فتى ضعيفا لا يعرف معنى المسؤولية . وأضافت انها تمكنت بعد مجيئها الى هذه المحطة النائية فى حمله على المجىء للعمل معها ، ولكنه أحس بالملل ، بعد بضعة شهور ، وفر مخلفا اياها وحدها . ولكنها لم تيأس ، فواصلت البحث عنه

حتى عثرت على عنوانه ، فكتبت اليـــه ، ولكنه رد عليها بالرفض فى رسالة ، حملها العالم الجيولوجى اليها .

ويفترق العالم الشاب عن كاتيا تاركا اياها وحدها فى محطتها النائية تبكى وحدتها واملها الضائع ، وليس لها ما يسليها الا صحبة بعض الحيوانات الداخبة ، التى كثيرا ما تحدثت اليها ، مفضية اليها بلواعج فؤادها .

لكن القصة ليست محزنة فى مجموعها . فكاتيا امراة شجاعة باسلة ، وهى تعمـل كل ما وسعها من جهد لاخفاء حبها والمها ، مستمرة فى عملها بجد ومثابرة . ولكن ناجيبين ، يعالج مثل كازاكوف ، هذه العواطف المتشابكة ، وكأنها مواضـع تستحق الدرس والفوص العميق فى البحث .

وتدور وقائع قصصه فى معظمها ، فى أوساط الصيد . ومن أشهر قصصه عن الصيد ، قصة « الصيد الأخير » ، التى تحدث فيها عن رجل طعن فى السن الى الحد الذى دفع زوجته الى التفكير بان الصيد لم يعد مأمون العواقب بالنسبة اليه ، ممـا جعلها تخفى عنه بندقيته . ويبكى الرجل حزنا « على بندقيته . فترثى زوجته لمرآه وتعيدها اليه . ويخرج الى الصيد من جديد . ويصف لنا الكاتب مغامرته هذه ثم يوحى الينا بان الرجل العجوز سيمون . وينحنى الصـــياد العجوز ليلتقط بعض « الزاد » ، فيشعر بالدوار ، وبطنين فى أذنيه ، ثم يعود فينتصب واقفـــا » ويمضى الى الغابة ، وقد سيطرت عليه حالة نفسية غريبة ، هى نتيجة تفكيره بالموت . وتهتز الأرض تحت قدميه ، كما اهتز السرير تحته وهو طفل ، ثم يمضى فى طريقه متجهـــا الى هدفه الذى لن يصله .

ولعل من الطريف ان بعض النقاد « السوفيات » قد قارنوا بين هذه القصـــة . وبين قصـة همينجواى « العجوز والبحر » ، وهم يقولون ان قصة همينجواى ، كانت متشائمة فى نهايتها ، وان عجوزه فشل فى محاولته ، بينما نجح عجوز ناجيبين فى صيده الأخير . لأنه حمل بعض البط معه .

وكتب ناجيبين قبل بضع سنوات فصـــلا « تمثيليا » أسماه « فى السيارة » . وتدور حوادثه حول فتاتين تستقلان سيارة عامة . وكانت كبراهما فى طريقها الى رجل تعتزم العيش معه دون زواج . أما الصغرى ، فتعرف ما تعتزمه رفيقتهـــا ، وهى تنظر اليها نظرة فيها الكثير من مشاعر الاعجاب . والاحترام والخوف على مستقبلها . وليس فى هذا الفصل التمثيلى أية أحـــداث مثيرة أو غير مثيرة على الاطلاق ، اذ أن الفتاة الكبرى تترك السيارة وتذهب الى موعدها ، بينما تظل الصغرى تتطلع اليهـــا والسيارة تبتعد عنها . ومثل هذا الوضع شائع ومألوف ، لكن الحركة فى القصـــة داخلية ، اذ انها العلاقة النفسية بين الفتاتين . ولا سيما ما يدور فى خلد الصـــغرى من مشاعر الاهتمام والقلق .

وفى قصة « بافليك » ، يصور لنا ناجيبين شابا نشأ فى كنف أمه الثيب ، وقد ظل تابعا لها طيعا لأمرها . ويبدو الفتى فى هذا الوضع « الفرويدى » التقليدى ، مخنثا مفتقرا الى الصلابة وسهلا على القياد . ولكنه سرعان ما انقلب فى الحرب الى جندى شجاع ، أبلى بلاء حسنا فى الدفاع عن وطنه ، ومات ميتة الأبطال . وبالرغم من هالة التمجيد التى أضفاها ناجيبين على بطله ، الا انه ظل أمام رفاقه «بافليك» ، الشاب المدلل الذى تدعوه أمه بهذا الاسم المصغر عن « بول » تحببا ، مما يشير الى تعلق ناجيبين بمتناقضات الحياة الانسانية .

***

هذه نظرة عاجلة الى هذين الكاتبين القصصيين الطالعين . لكن هناك كتابا آخرين يسيرون على نفس الطريق . ويجد المرء فى مختلف الصحف الأدبية قصص المغامرات والحركة النابضة . وتدور أحداث الكثيرات من هذه القصص فى بلاد أجنبية ، وأماكن غريبة . ولا ريب فى أن القارىء السوفياتى الذى استمع الى انواع المواعظ ، يجد فى هذه القصص طرافة تخرجه عن الرتابة الخالدة فى الحياة السوفياتية . ولم تكن قصة « الملجأ السرى فى الغابة » لكورابينوف الا صورة لمغامرات حرب المقاومة التى قامت بها العصابات السرية ضد الألمان أما قصة « قهوة على طريق بودابست » لليونيد بيرفومايسكى ، فتصور حياة شيوعى مجرى ، فر الى الاتحاد السوفياتى بعد فشل ثورة بيلاكون ، ليصبح جنديا سوفياتيا . وعندما احتل الروس بودابست ابان الحرب الأخيرة ، راح يبحث عن أمه التى خلفها عند فراره فيها .

وهناك طراز آخر من القصص أثار الكثير من التعليقات فى روسيا ، وهو يضم تلك التى تثير المشاكل الدينية والاجتماعية ، ثم تقترح حلولا تتعارض مع قواعد السلوك الرسمية . وقد كسب سيرجى فورونين الشهرة بقصتين من هذا الطراز تحدث فى أولاهما وهى « الدانوب الأزرق » ، عن نمو العداء بين رجلين الى الحد الذى دفع بأحدهما وهو ايفان الى تحطيم فك الآخر وهو نيقولاى بلكمة من يده . ويدين القضاء ايفان فيحكم عليه بالسجن ثمانية عشر شهرا يقضيها ثم يخرج من سجنه ليقصد نيقولاى راغبا فى الاعتذار اليه ، ولكن هذا يخشى هذه الزيارة المفاجئة فيبادر خصمه قبل أن يعرف حقيقة هدفه من الزيارة بطعنة من مديته تؤدى به الى السجن أيضا مخلفا وراءه زوجته وأطفاله .

ويعرض فورونين فى قصته هذه مشكلة المنافسة المتزايدة بين رجلين على انها شىء يجافى العقل والمنطق وانها أشبه ماتكون بالقدر الذى يحكم على منزل بالانهيار . فايفان لا يفهم كيف نشأ العداء بين الناس . ولماذا يكون وجوده أمرا حتميا . والقصة بأحداثها صورة الى تزايد الكراهية بين رجلين كانا فى السابق صديقين حميمين ، ثم أخذ كل منهما يرى فى رفيقه ، الشخص المذنب المسؤول ، وفى نفسه البرىء من

كل ذنب . ولا ريب أن كل من يقرأ القصة لابد أن يتساءل ، ترى أين تقع الخطيئة حقا ؟ ومن المسؤول عنها ؟ انه ليس الانسان ، وانما هى الظروف أو القدر ، أو انها تلك القوة الشريرة التى لا تقاوم فى الطبيعة الانسانية .

ويثير فورونين فى قصته الثانية « العودة الى البيت » قضية اخرى اكثر تعقيدا . فالبطل جندى سوفياتى ، يعود الى قريته من أسر الألمان ، ويجد أن شخصا آخر يدعى فاسيلى ، يعيش هانئا فى بيته مع زوجته واطفاله . ويتذكر البطل ، أن فاسيلى هذا ، كان يعمل حارسا على الأسرى الروس عند الألمان . فيحدثه ويعترف هذا بالحقيقة ، متوسلا اليه الا يشى به ، وهو يقول ... « كنت أريد أن أعيش » . وهكذا يصور الكاتب قصة أولئك الذين ضعفوا عندما واجهوا الموت فخانوا بلادهم وتعاونوا مع الألمان ، ثم نجحوا فى العودة الى صفوف الروس واخفاء خيانتهم .

وبات لزاما على البطل أن يقرر ، هل يحطم حياة فاسيلى وأسرته ، أو يترك القرية دون أن يشى به . ويحدث نفسه قائلا .. « لقد انتهت الحرب منذ سنوات طوال ، ولكنها مازالت دائرة فى حياتنا . وليس فى وسعى أن أفعل شيئا مع فاسيلى ، فهو يستثير اشفاقى ، كما أشعر نحوه بشىء من الغرابة » .

وقد أثار هذا الموقف المارق العطوف على رجل خائن ، سخط الكثيرين من القراء .

ولعل من أجمل القصص السوفياتية الحديثة قصة « رأس السنة » التى نشرها كاتبها فلاديمير دودينتسيف فى يناير عام ١٩٦٠ . ولا تمثل أهمية هذه القصة فى انها تنطوى على شىء من النقد لبعض مظاهر الحياة السوفياتية ، اذ أن مثل هذا النقد قد ظهر بين عامى ١٩٥٤ و ١٩٥٧ . وبعد هذا التاريخ على نطاق ضيق فى قصص الكثيرين من الكتاب السوفيات . وليس المهم فى قصة دودنيتسيف ما يقوله ، بل ما يحاول قوله ، اذ انه لم ينجح فى أن يقول كل ما أراد قوله . ولعل قصته هذه ، هى أول قصة بعيدة عن الواقع تنشر فى روسيا السوفياتية فى السنوات الأخيرة . فهى تصور عالما غريبا ، نصفه يعيش تقريبا فى ظلام دامس ، ويستعمل الرموز والاستعارات ، ويجمع بين الخيال والواقع . وبطل القصة عالم يعمل فى تكييف أشعة الشمس ، لخلق مصدر من مصادر الطاقة لأولئك التعساء الذين يعيشون فى ذلك النصف المظلم من العالم . وتبدو هذه القصة الطوبائية فى بعض أجزائها وكأنها من وضع طالب موهوب ، لم يصل مرتبة التخرج بعد . ولا ريب فى أن « البوم » الغريب الذى يطوف بالمكان ، هو جزء من الصورة ، اذ يكثر ظهوره بشكل يتجاوز حدود الطبيعة .

وقد تختلف الأفكار الرئيسية فى القصة ، كالبحث الفردى عن الاكتفاء الذاتى والثراء والحب ، مع العقيدة السوفياتية ، لكن مظاهرها الأخرى كنجاح البطل فى تحقيق رسالته ، وشفائه من مرضه ، واختفاء « البوم » والسعى الدائب لمساعدة المحرومين فى العالم المظلم ، فظواهر تنسجم كل الانسجام مع العقيدة . ولا ريب فى أن هذه القصة ، بالرغم مما فيها من فجاجة هجينة ، تمثل بما فيها من ابتكار حدثا هاما فى الأدب السوفياتى يرمز الى تطور لا بد وأن يسير فى طريقه ، ليعود بالقصة الروسية الى سالف مجدها فى أيام تشخوف ودوستويفسكى وأمثالهما من عمالقة القصة العالمية ...